الأستاذ / عبد السلام صحراوي

مقياس مدخل إلى الأدب المقارن / السنة الثانية / السداسي الأول.دراسات أدبية ولغوية.

تطبيق/ الأفواج: 03- 11- 14.

شخصية كليوباترا كما تحدّث عنها التاريخ و المسرح الأوروبي والعربي

كليوباترا: هي ملكة مصر التي تحدّث التاريخ عن سحر جمالها وإغرائها وغرامياتها.

وُلِدتْ حوالي 69 قبل الميلاد ، وشاطرتْ أخاها " بطليموس " عرش مصر وهي في السابعة عشرة من عمرها . غير أنّها سرعان ما حُرمتْ من حقوقها نتيجة خلافٍ مع أخيها، ممّا اضطرها للفرار إلى سورية. وعندما غزا " يوليوس قيصر" مصر ، دبَّرتْ حيلةً للقائه فخلبتْ لبّه ، فساعدها في القضاء على أخيها واعتلاء عرش مصر. وحينما عاد يوليوس قيصر إلى روما ، رافقته كليوباترا وعاشت فترة خليلة له أمام الملأ .. ثُمَّ أُغتيل قيصر ، ففرّتْ إلى مصر .. ثُمَّ جاء ماركْ أنطونيو وعلا نجْمُهُ ، وعملتْ على فتنته وإغرائه وتمكَّنتْ منه وتبادلا الغرام وأنجبا خلال سنوات ثلاثة أطفال ... ثمَّ ضجَّ أهالي روما وانقلبوا عليه ، فأُرسلَ " أُكتافيو " لتأْديبه .. وبالفعل ينهزم جيش أنطونيو و كليوباترا أمام أُكتافيو ، فلاذتْ كليوباترا بضريح فخمٍ شيّدته لنفسها ، وظَنَّ أنطونيو أنَّها غدرتْ به وهجرتهُ فانتحرَ..

ويقولُ بعضُ المؤرّخين ، إنّ كليوباترا أمرتْ بأنطونيو ، فحُملَ إليها وراحتْ تعتني به إلى أنْ ماتَ بعد حين ..أمّا هي ، وخوفًا من أنْ يقودها " أكتافيو " أسيرةً في شوارع روما ، فقد انتحرتْ بأفعى تركتها تلدغها في ثديها .

كليوباترا ساحرة وادي النيل:

لقد كانتْ كليوباترا كما تُصوّرها الكتب التي أُلِّفتْ حولها أشدّ المعشوقات إغراءً وأكثر النساء تأثيرًا في الرجال. ماتتْ منذ أكثر من ألفيْ عام ولكنَّ شهرتها لا تزالُ ساطعةً في كلِّ الآداب والثقافات عبر العالم.. إنّها ساحرة وادي النيل وملكة مصر ..

انتحرتْ في سنِّ التاسعة والثلاثين من عمرها ، واستحوذتْ على حبِّ رجلين من أعظم الرجال آنذاك وهما : يوليوس قيصر ومارك أنطونيو ... لقد غزا يوليوس قيصر العالم كلّه تقريبًا ولكنَّ كليوباترا هي من غزا قلبه وتمكنتْ منه حبًّا وعشقًا وإغراءً .. فعندما زحف قيصر على الإسكندرية في السنة الثامنة و الأربعين ق. م ، كانت كليوباترا في وضع سيئ للغاية ؛ لقد انتزُعَ منها عرشُها ولم يبق لها مال ولا جاه ولا سلطة . بل إنَّ الخطر كان يتهدّدها في كلّ لحظة بقطع رأسها. فقد تزوّجتْ من أخيها وتقاسمتْ معه عرش مصر، ثمَّ نشبَ بينهما نزاعٌ عائلي، فأعلن عليها الحرب ن واضطرّت إلى الفرار من القاهرة للنجاة بحياتها. وأصدر قيصر أمره إليها للمثول أمامه. ولكن، كيف لها أنْ تستجيب لطلبه وهي التي تخشى القبض عليها وقتلها..؟

دهاء كليو باترا ، ويوليوس قيصر يقع في حبّها :

في إحدى الليالي المظلمة، تسلّلتْ كليوباترا في قارب صيد صغير، وأمرتْ خادمتها بأنْ تربطها وتلفّها في بساط حُمِل في القارب إلى القصر، وهناك فُكَ البساط أمام عيْنيْ قيصر روما.. و عندما وثبتْ كليوباترا خارجة من البساط وأخذتْ في الضحك والرقص متنقّلة في أرجاء الغرفة ن دفع منظر جسدها البديع الدم حارًا متدفقًا في عروق قيصر، حتى لقد أصابته الدهشة وأنتابه الذهول كما لو أنّه لم ير امرأة من قبل..

كانَ قيصر يزهو بأنَّه من سلالة فينوس (إلهة الحب والجمال) ، وبالتالي كان يعتزُّ بأنْ يكون حكمًا في مفاتن النساء .. غير أنَّ الذي أبصره حينئذ كان شيئًا جديدا وغريبًا وخارقًا وباهرًا وخارج مقاييس الجمال والفتنة. لقد كان قيصر في الرابعة والخمسون من عمره.. بينما كانتْ كليوباترا في ريعان شبابها — شباب العشرين ، تتدفّقُ حيوية وشبابًا وقوة.. واستمع قيصر إلى شكواها ؛ فأخوها يريد قتلها والاستيلاء على العرش.فأقسم قيصر أنْ يلقِّنَ ذلك الشاب درسًا لن ينساه . فكان أنْ زحف على رأس جيشه الروماني والتحم مع الجيش المصري وأباده عن بكرة أبيه، وطارد شقيق كليوباترا إلى ضفاف النيل حيث ابتلعته الأمواج. ومنذ ذاك أصبحتْ كليوباترا ملكة مصر بغير منازع وتوطّدتْ سيطرتها على أرض الفراعنة من أقصاها إلى أقصاها..

وتوالتْ الشهور، وأنجبت كليوباترا لقيصر ولدًا هو الولد الوحيد الذي كان له في حياته. ولما كانتْ لقيصر زوجة أخرى في روما ، فقد عاشتْ معه كليوباترا خليلة دون أنء يستطيع الزواج منها..

وبعد أحداث ومؤامرات ، قُتِلَ قيصر غيلةً (أُغتيلَ) في روما . وأصبح "ماركْ أنطونيو" سيد الرومان ؛ وهو الذي كان دائمَ الصخب ، غارقًا في الديون ، لا يفيقُ من الشراب .. وفي غمرة انتصاره على منافسيه في روما، سيَّر جيوشه إلى الشرق حيث عاش يعيثُ في الأرض فسادًا ونهبًا وسلبًا.

ماركْ أنطونيو يقع هو الآخر في حبِّ كليوباترا الساحرة :

كانتْ مصر أغنى بلدٍ في الشرق ، وقال بعض أتباع أنطونيو لسيدهم وقائدهم في لحظة من لحظات وعيه " ... لنمضِ قُدُمًا إلى الإسكندرية، لنقطع رأس كليوباترا ونغترف من خيرات مصر... "

وبالفعل، لقد مضوا قاصدين مصر ، فارتعدتْ أوصالُ كليوباترا .. كيف لها أنْ تصُدَّ زحف " ماركْ أنطونيو" وجيشه ؟ أبالأسطول والسلاح؟ أمْ بالحبّ والإغراء ؟ وهذا الأخير هو الوسيلة التي جُبِلتْ عليها؛ الحيلة والإغراء والغواية..

لقد اتخذتْ أهبتها لملاقاة أنطونيو في سفينة فاخرة موشاة بالذهب ، ذات أشرعة أرجوانية ، وقد أحاطتْ نفسها بالأبّهة والبهرج اللذين ذُكرا في ألف ليلة وليلة .. بينما العذارى الفاتنات المدثَّرات بالدمقس ، يرقصن على نغمات موسيقى الصحراء الضارية وقد أسكر عبير البخور الحواس .. وفي وسط هذا السحر الشرقي اضطجعتْ كليوباترا على وسادة من الحرير ، وقد اتخذتْ وضع " فينوس " إلهة الحب والجمال ، فبدتْ ساحرة ، فاتنة ، لا تُقاوم .

وبهذه الطريقة توقعُ كليوباترا ماركْ أنطونيو في حبّها وهو الذي كان جُنديًا خَشِنًا ، متوحّشًا في طباعه ، فَظًا . وكان يقيمُ سهرات ماجنة لنساء متهتِّكات ، وشرادم الأفَّاقين... لقد وقع في غرامها منذ الوهلة الأولى ، وخضع لهذه المرأة الفاتنة الجمال ؛ هذه المرأة ذات الأصل العريق ، والإنسانة المثقّفة المهذَّبة. المرأة التي تحفظ الشعر وترويه .. وهكذا غدتْ عشيقته وخليلته . وهي التي ألهمته الإخلاص والوفاء بطريقة غريبة.

وكانتْ نهاية كليوباترا و أنطونيو بعد أنْ هبّتْ روما بأكملها ضدَّهما ، وحطّمتْ مراكب جيوشهما وشتّتتْ قوتهما .. وقد اعتقد أنطونيو أنَّه سوف يتم القبض عليه ويُقطعُ رأسُه ، فانتحرَ ، ولاقى النزع الأخير بين ذراعيْ كليوباترا التي ظلَّ متعلِّقًا بها في الموت كما تعلَّق بها في الحياة . وقد آلتْ كليوباترا على نفسها ألّا تقع في قبضة أعدائها حتى لا تُقاد مكبَّلةً بالأغلال في شوارع روما أسيرةً أمام جمهور الدهماء تتصايحُ مستهزئةً بها ، ففضّلتْ الانتحار .. ولكن ، كيف؟

بعضُ الناس يظنُّون بأنَّها قد جرحتْ نفسها ثُمَّ صبَّتْ في الجرح سُمَّ الثعبان. والبعضُ يقول بأنَّ ثعبانًا قد دُسَّ لها في سلَّة زهور، وأنَّها تركتْ الثعبان يلدغُها في صدرها.. وهي ترقدُ الآنَ بجوار مارك أنطونيو " في مكان ما بمصر .. والمكان الذي دُفِنا فيه لا يزال لغزًا حتّى الآن..

ولقد كتب أحمد شوقي مسرحية " مصرع كيلوباترا" ، و أظهر فيها دفاعه عن هذه المرأة –باعتبارها مصرية – متأثّرًا تأثرا عكسيًا بما كُتب عنها في المسرحيات الأوروبية الكثيرة بحيث ظفر موضوع " كيلوباترا" في الآداب الأوروبية بما لم يظفر به موضوع آخر من حيث عدد المسرحيات التي أُلّفت فيه .ومنها مسرحية " أنطونيو وكليوباترا " لوليام شكسبير الإنجليزي ، مسرحية " كليوباترا " لـ صموئيل دانيال " الإنجليزي أيضًا ، و " كليوباترا الأسيرة " للشاعر الفرنسي " جُوؤُلْ " ، ودريدَنْ وغيرهم.. وفيها جميعًا اتخذت " كيلوباترا" مثال المرأة الشرقية – المصرية في نظرهم؛ فهي مستهترة ولوعة بالملذّات ، تتخذ إلى غايتها طرقًا ملتوية غير مستقيمة. وهو الأمر الذي لم يرضِ أحمد شوقي الذي أراد أن يدافع عن هذه المرأة ويصحّح تلك النظرة الخاطئة بتصوير " كيلوباترا" امرأةً وطنية مخلصة لبلادها ، تقدّم وطنها على حبّها لأنطونيو....إلخ. و لذا يعدّ شوقي متأثّرًا بأولئك الكتّاب أو الشعراء تأثّرًا عكسيًا.(شكسبير–دريدن...)